بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} [(٧) سورة آل عمران]: **"اختلف القراء في الوقف هاهنا فقيل على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: "التفسير على أربعة أنحاء، فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم وتفسير لا يعلمه إلا الله" ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبي الشعثاء وأبي نهيك وغيرهم".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: "**التفسير على أربعة أنحاء**" يعني على أربعة أنواع، وذكر الأول منها وهو قوله: "**تفسير لا يعذر أحد في فهمه**" وهذا القول جاء عن ابن عباس -رضي الله عنه- بألفاظ متقاربة، فهو بهذا اللفظ مع ما ينضم إلى ذلك من ذكر الأصناف الثلاثة أو الأنواع الثلاثة -ما تعرفه العرب، وما يعلمه الراسخون، وما لا يعلمه إلا الله- كأنه أراد بذلك -والله تعالى أعلم- لا يعذر أحد في فهمه أي أنه ظاهر المعنى، لا يحتاج إلى كثير معرفة بلغة العرب وكلامها، ولا يحتاج إلى علم ورسوخ، وإنما يفهمه كل من سمعه، هذا الذي يظهر والله أعلم.

وقد يفهم من بعض ألفاظه أن المراد بذلك هو ما يتعلق بالفرضية، يعني مما افترض الله -عز وجل- على الإنسان وخاطبه به من العمل والأحكام التي يجب عليه أن يعلمها، وعلى كل حال فهذا القول وهو أن الوقف على لفظ الجلالة هذا عليه السواد الأعظم من أهل العلم، أي أن عامة السلف -رضي الله تعالى عنهم- من الصحابة ومن بعدهم يقولون: إن الوقف على لفظ الجلالة.

ويحتجون على ذلك بأمور، منها: أنه جاء في قراءة أبيّ وابن عباس -رضي الله عنهم أجمعين-: **(ويقول الراسخون في العلم آمنا به كل من عند ربنا)**، يعني أن المعنى يكون هكذا: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به كل من عند ربنا)؛ لأنه على هذه القراءة: (ويقول الراسخون) تكون الواو استئنافية، وتكون هذه جملة فعلية جديدة لا مرية ولا إشكال فيها، وفي القراءة الأخرى وهي رواية غير متواترة كذلك -قراءة ابن مسعود-: (إنْ تأويله إلا عند الله)، فـــ"إن"

هنا هي إن النافية وليست المخففة (إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا)، فـــ"إن تأويله" معناه ما تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا.

وعرفنا قبل بأن القراءة الآحادية أو غير المتواترة تفسر القراءة المتواترة، فاحتجوا بهذا واحتجوا أيضاً بأمور أخرى كذلك منها أنهم قالوا: إن ما نفاه الله -عز وجل- عن الخلق وأثبته لنفسه لا يمكن لأحد أن يعلمه، وهذا في باب المعلومات، وإن كان في غيرها فكذلك ما نفاه الله عن الخلق وأثبته لنفسه لا يمكن أن يضاف إليهم، فالله -عز وجل- قال: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} [(٧) سورة آل عمران]، حيث جاء بصيغة هي أقوى صيغ الحصر وهي النفي والإثبات، التي جاءت بها كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، كما قال في المراقي: أعلاه لا يرشد إلا العلماء، فهذه أعلى صيغة من صيغ الحصر، ومن أراد أن يراجع الكلام عليها فلينظر في كتب الأصول والمفهوم منها، ومن أهل العلم من اعتبره منطوقاً، فالحاصل أنهم قالوا: إن الله إذا نفى شيئاً عن الخلق وأضافه لنفسه فلا يمكن أن يضاف إليهم.

واحتجوا على ذلك أيضاً بأن الله -عز وجل- ذمَّ الذين يتطلبون تأويله فقال: {فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ} [(٧) سورة آل عمران] فأخبر أنهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فهؤلاء ذمهم الله -عز وجل- على تتبع المتشابه ونفَى علمه عنهم، أو عن الخلق فقال: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} فكيف لهؤلاء الراسخين في العلم أن يتشاغلوا بهذا المتشابه طلباً لمعناه!

هذه أبرز وجوه احتجاج هؤلاء، وهم سواد أعظم، بل عامة أهل العلم يقولون بهذا، وهو اختيار ابن جرير الطبري -رحمه الله- وغيره خلق كثير لا يحصيهم إلا الله -عز وجل- وعلى قول هؤلاء تكون الواو استئنافية وما بعدها جملة جديدة، فهو قال: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} ثم مدح الراسخين في العلم بأنهم يفوضون علمه إلى عالمه ويؤمنون به.

والذين خالفوهم وقالوا: إن الواو للعطف احتجوا على هذا أيضاً بأمور، حيث قالوا: إذا كان الراسخون في العلم لا يعلمون تأويله فما مزيتهم على غيرهم ممن لا يوصف بالرسوخ، فكل المؤمنين العوام وأوساط المتعلمين سوى أهل الزيغ الذين يتتبعون هذا المتشابه يقولون: آمنا به ويفوضون علم ما لم يعلموا إلى الله، فما مزية الراسخين إذاً؟

هذا مما احتجوا به، ويمكن أن يرتفع كثير من الخلاف - ولا أقول كل الخلاف- في حال التفصيل، وذلك ببيان المراد بالتأويل.

فالتأويل أصل مادته من الأوْل وهو الرجوع، وهذه اللفظة، وردت في القرآن وفي كلام السلف في الدلالة على معنيين اثنين:

الأول: التأويل هو التفسير، فتأويل الكلام يمكن أن يراد به معنى التفسير، وتأويل الرؤيا يرد بمعنى تفسيرها، قال تعالى: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [(٣٦) سورة يوسف] معناه نبئنا بتفسير هذه الرؤيا، ويقال: هل يوجد أحد يؤول الرؤى؟ أي يفسرها، وفي الرواية المشهورة دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن عباس فقال: ((وعلِّمْه التأويل))[1] بمعنى وعلمه التفسير.

[1] - أخرجه أحمد (٢٣٩٧) (ج ١ / ص ٢٦٦) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.

المعنى الثاني الذي يرد له لفظ التأويل: هو ما يئول إليه الشيء ثانياً، فالمراد بتأويل الرؤيا بهذا الاعتبار هو تحققها ووقوعها، كما قال يوسف -صلى الله عليه وسلم- لما رأى أباه وأمه وأخوته قد سجدوا له: {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [(١٠٠) سورة يوسف]، والرؤيا التي رآها هي قوله: {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [(٤) سورة يوسف] فتأويل هذه الرؤيا هو وقوع ذلك منهم، وتأويل الخبر هو وقوع المخبر به، كما قال الله -عز وجل-: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] يعني وقوع ما أخبر به {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [(٥٣) سورة الأعراف]، يعني أنهم سيندمون عندما يتحقق وقوع ما أخبر به الله من البعث والنشور والقيامة.

فالمقصود أن تأويل الخبر وقوع المخبر به.

وكذلك تأويل الأمر فعل المأمور والامتثال كما في حديث عائشة -رضي الله عنها- المشهور، لما نزلت: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [(١) سورة النصر] وفيها: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ} [(٣) سورة النصر] قالت: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي)) يتأول القرآن"[٢]، بمعنى يمتثل ويحقق ويفعل ما أمره الله -عز وجل- بفعله.

المعنى الثالث للتأويل -عند المتأخرين-: هو صرف الكلام من المعنى الراجح أو من الاحتمال الراجح إلى المرجوح لقرينة تدل على ذلك، وهذا المعنى لا يعرف عند السلف، ولا وجود له في لغة القرآن.

وبعد أن عرفنا هذا التفصيل في معنى التأويل نرجع إلى الآية: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} [(٧) سورة آل عمران]، فإنْ حملنا ذلك على المعنى الأول -أي التفسير- وقلنا: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} يعني تفسيره، إذا قلنا هذا ووقفنا عند لفظ الجلالة ، فهذا يعني أنه توجد في القرآن معانٍ لا يعلمها إلا الله -عز وجل- بمعنى أنه لا أحد يعرف تفسير هذه الآية أو هذه الكلمة أو الجملة إلا الله فيكون ذلك مما استأثر الله بعلمه، وإذا قلنا بهذا أيضاً فيمكن أن نحمل عليه أثر ابن عباس الوارد قبل قليل الذي ذكر فيه أن التفسير على أربعة أنحاء، وذكر أن منها ما لا يعلمه إلا الله، أي ما استأثر الله بعلمه، فإذا قررنا الوقف على قوله: {إِلاَّ اللّهُ} وجعلنا التأويل بمعنى التفسير فمعنى ذلك أنه يوجد في القرآن أشياء خاطبنا الله بها لا أحد يعرف معناها، لا الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا غيره.

والذين يقولون بهذا القول لديهم أمثلة على ذلك ومن أقربها الحروف المقطعة، فإن فيها نحو خمسة وثلاثين قولاً، قالوا: إن هذه الأقوال كلها لا دليل عليها، وإنما هي احتمالات لا يجب الوقوف عندها، ولا أدل على ذلك من أنها اختلفت إلى هذه الأقوال الكثيرة جداً، فليس فيها شيء عن الله ولا عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا إذا قلنا: إن لها معنى في نفسها.

وإذا قلنا: إن التأويل في الآية بمعنى التفسير على أن الواو عاطفة في قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} [(٧) سورة آل عمران] يعني أنهم يعلمون وفي الحال يقولون: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}، فيكون هنا التأويل بهذا الاعتبار بمعنى التفسير لكن هذا التأويل يعلمه الله

[2] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب التسبيح والدعاء في السجود (٧٨٤) (ج ١ / ص ٢٨١) ومسلم في كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤) (ج ١ / ص ٣٥٠).

-عز وجل- ويعلمه الراسخون في العلم، وعلى هذا القول –القول بالوصل- لا يوجد في القرآن متشابه مطلق من جهة المعاني، وقولنا: متشابه مطلق يعني لا يعلمه إلا الله، وأما ما يعلمه بعض الناس ويخفى على البعض أو يلتبس عليهم يسمى متشابهاً نسبياً.

وإذا قلنا: إن التأويل في قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} بالمعنى الآخر الذي هو حقائق الأشياء الغيبية التي أخبر الله -عز وجل- عنها مثل كنه صفات الله -عز وجل- أي حقائقها وكيفياتها، فهذا لا يعلمه إلا الله -عز وجل- وهو واضح، فإذا فسرنا التأويل بهذا الاعتبار فهنا يجب أن نقف على لفظ الجلالة ما نصل فنقول: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}، بمعنى حقائق الغيبيات.

وبالنسبة للترجيح في هذه المسألة إما أن نأخذ بقول الأكثر وانتهينا، لكن قد يقول قائل: هل الترجيح بمجرد قول أكثر أهل العلم طريقة صحيحة في الترجيح؟.

الطريقة الثانية: أننا نرجح بين القولين باعتبار آخر، وذلك بالنظر إلى أكثر هذه المعاني استعمالاً في القرآن، أعني في دلالة لفظ التأويل، فلو جئنا نستقرئ كلمة "تأويل" في القرآن نجد أنها استعملت في معنى التأويل أكثر من التفسير، من ذلك تأويل الرؤيا بمعنى الوقوع، وتأويل الخبر بمعنى وقوع المخبر به، وأما بمعنى التفسير فربما لم يرد إلا في موضع واحد هو قوله: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [(٣٦) سورة يوسف] يعني تفسيره، فالمعنى الثاني هو الأكثر وروداً في القرآن، وبالتالي يمكن أن نرجح بهذه الطريقة فنقول: اللفظة قد احتملت معنيين، ووجدناها تستعمل في القرآن غالباً بالمعنى الآخر، فنحملها عليه في هذا الموضع، فهذه طريقة في الترجيح سار عليها بعض أهل العلم مثل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وبالتالي فإننا إذا حملناه على المعنى الآخر، بمعنى أن المراد بالتأويل حقائق الأمور الغيبية وما تئول إليه، فهذا معناه أنه لا يوجد لفظ أو كلمة أو جملة أو آية في القرآن يعرفها أحد، لا النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا غير النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما يقال: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} [(٧) سورة آل عمران] وعلى هذا يكون الوقف عند لفظ الجلالة.

الطريقة الثالثة الجيدة في الترجيح هي أن نجمع بين هذه الأقوال والمعاني، فابن عباس -رضي الله عنهما- ثبت عنه أنه قال بالوقف على لفظ الجلالة، وثبت عنه أيضاً الوصل، وقال: "أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله"، وكل هذا صح عن ابن عباس ولا تعارض بينهما، فيقال: الوقف صحيح ويكون الوقف عند الجلالة على معنى حقائق هذه الغيبيات وكنهها وما تئول إليه وما أشبه ذلك من الأمور الغيبية، ويكون الوصل باعتبار التفسير؛ لأنه لا يوجد في القرآن شيء لا يُعرف له معنى؛ لأن الله خاطبنا بلسان عربي مبين، ولم يخاطبنا بالألغاز والأمور التي لا تصل إليها عقولنا ولا نفهمها، فالله يقول: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [(١٧) سورة القمر]، ولا أدل على ذلك من أن الصحابة -رضي الله عنهم- حاولوا أن يفسروا كل شيء، ومن ذلك الحروف المقطعة، فهذه الحروف المقطعة، من الأقوال الجيدة فيها أنها حروف مبانٍ وليست بحروف معانٍ، وحروف المعاني كحروف الجر، في وإلى وعن .. إلى آخره، وهي التي يقول عنها النحاة: إنها تدل على معنىً في غيرها ولا تدل على معنىً في نفسها، أي أنها للربط، مع أن شيخ الإسلام يخالفهم في هذا فيقول: "في" تدل على الظرفية و"إلى" تدل على الغاية..الخ، وهم يقولون: نحن نقصد شيئاً آخر.

المهم أن هذه حروف مبانٍ أي تبنى منها الكلمة، وأما ألف باء جيم دال حاء فهذه من المؤكد أنها ليس لها معنىً في نفسها، وإنما تركب منها الأسماء والأفعال وتركب منها كذلك حروف المعاني، أما هي في نفسها فليس لها معنى، وبناء على هذا لا يرد هذا السؤال القائل: هل يوجد في القرآن شيء ليس له معنى؟

وإن سئلنا فإننا سنقول: لا يوجد في القرآن شيء ليس له معنى، بل كل ما في القرآن له معنى.

فإن قيل: وكذلك الحروف المقطعة؟ قلنا: هي بهذا الاعتبار ليست من الأفعال ولا الأسماء ولا حروف المعاني، والكلام في لغة العرب: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، أما ألف باء جيم دال فهذه ليست لها معنى، وهذه الحروف المقطعة هي إنما تشير إلى الإعجاز، وأن هذا القرآن مكون من هذه الأحرف، فهو يتحداهم أن يأتوا بمثله، وهذا القول قال به بعض أهل العلم، وهو قول جيد، ولذلك تجد عامة المواضع التي ذكرت فيها هذه الحروف يذكر بعدها القرآن أو الوحي.

والخلاصة أن الوقف على لفظ الجلالة يكون المقصود العلم بكنه الأشياء وحقائقها وما تئول إليها، وعلى الوصل {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [(٧) سورة آل عمران] يكون المقصود التفسير، وبهذا نكون جمعنا بين القولين -الوصل والوقف- ونزلنا كل حالة على معنىً يناسبها، والله تعالى أعلم.

هذه هي الخلاصة لكلام طويل في هذا الباب بُحث في كتب أصول الفقه وفي علوم القرآن، فشيخ الإسلام ألف فيه رسالة "ذات الإكليل" وكل هذا من المتشابه أعني المتشابه الخاص وأما المتشابه العام فهو الوارد في قوله تعالى: {كِتَابًا مُّتَشَابِهًا} [(٢٣) سورة الزمر]، والله أعلم..

"ومنهم من يقف على قوله: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [(٧) سورة آل عمران]، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد.

وقد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: "أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله"، وفي الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دعا لابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقال: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))[٣].

والتأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان: أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يئول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ} [(١٠٠) سورة يوسف] وقوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي حقيقة ما أُخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمها على الجلية إلا الله -عز وجل-، ويكون قوله تعالى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [(٧) سورة آل عمران] مبتدأً، و{يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ} [(٧) سورة آل عمران]: خبره، وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر، وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [(٣٦) سورة يوسف] أي بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}؛ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله تعالى: {يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ} [(٧) سورة آل عمران] حالاً منهم، وساغ هذا وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه كقوله تعالى: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ}

---

[3] - سبق تخريجه.

[(٨) سورة الحشر] إلى قوله: {يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا} الآية [(١٠) سورة الحشر]، وقوله تعالى: {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [(٢٢) سورة الفجر] أي وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً.

وقوله إخباراً عنهم: إنهم يقولون آمنا به: أي بالمتشابه، {كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} [(٧) سورة آل عمران]: أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق".

ابن كثير -رحمه الله- ذكر الاحتمالين وحمل قوله: {يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ} [(٧) سورة آل عمران] على ما ذكر، وهذا كلام جيد مداره على ما ذكرت، لكن قد يرد هنا سؤال من القائلين بالوقف على الجلالة في الوقت الذي يحملون معنى التأويل فيه على التفسير، يقولون: إذاً إذا قلتم بأن الراسخين في العلم يعلمون تأويله، فما فائدة ما ذكر الله من صفتهم من قولهم: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} [(٧) سورة آل عمران]؟

فالجواب أن يقال: هذا واضح، فهم مع علمهم بمعناه ليسوا كالزائغين الذين يشككون ويلبسون به على الناس، وينقرون عن هذه الأشياء ويتتبعونها، فهم مع علمهم بذلك يؤمنون به، أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له وأن الجميع آمنا به، وهو كلام الله حق وصدق، فهم بخلاف أولئك الزائغين.

"{كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله، وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد؛ لقوله تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [(٨٢) سورة النساء]**، ولهذا قال تعالى: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ}** [(٧) سورة آل عمران] **أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة.**

وروى ابن المنذر في تفسيره عن نافع بن يزيد قال: يقال الراسخون في العلم، المتواضعون لله، المتذللون لله في مرضاته لا يتعاطون من فوقهم ولا يحقرون من دونهم".

العبارة كما في الكتاب الأصل: "**لا يتعاظمون على من فوقهم**" لذلك ينبغي أن يعدل قوله: "**لا يتعاطون**" إلى "**لا يتعاظمون**"، فهي الأصح، وهذا مما يدخل في الكتب من التصحيف.

"قال: يقال الراسخون في العلم المتواضعون لله، المتذللون لله في مرضاته، لا يتعاظمون على من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم.

ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} [(٨) سورة آل عمران] **أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ودينك القويم.**

{وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً} أي من عندك، {رَحْمَةً} تثبت بها قلوبنا وتجمع بها شملنا وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً، {إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} [(٨) سورة آل عمران].

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))[4] ثم قرأ: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} [(٨) سورة آل عمران].

وقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ} [(٩) سورة آل عمران] أي يقولون في دعائهم: إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزي كلاًّ بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر.

وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١٠-١١) سورة آل عمران] يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه كما قال تعالى: {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [(٥٥) سورة التوبة]، وقال تعالى: {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [(١٩٦-١٩٧) سورة آل عمران]، كما قال هاهنا: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} أي بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه {لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} [(١٠) سورة آل عمران] أي حطبها الذي تسجر به وتوقد به، كقوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء]".

هذا الأسلوب من مزية تفسير ابن كثير، فهو يفسر القرآن بالقرآن، وهذه نماذج وأمثلة عليه.

"وقوله تعالى: {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ} قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كصنيع آل فرعون، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد".

عبارات السلف في هذا متقاربة، {كَدَأْبِ} أي كصنيع، كعمل، كفعل، كعادة، كسنّة، كل هذه العبارات متقاربة عبر بها السلف -رضي الله تعالى عنهم- فالدأب: هو العمل وهو العادة تقول: هذا دأبي ودأب فلان بمعنى: هذا عملي وعمله، أو هذه عادتي وعادته، تقول: هذا دأبه يفعل كذا، يعني: هذه عادته المستمرة، وقوله: {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ} يعني كفعلهم أو كصنيعهم وكعادتهم وفعلهم المستمر من التكذيب.

"ومنهم من يقول: كسنّة آل فرعون وكفعل آل فرعون وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة والدأب: الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك، والمعنى في الآية: أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاءوا به من آيات الله وحججه.

{وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١١) سورة آل عمران] أي شديد الأخذ، أليم العذاب لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شيء، بل هو الفعال لما يريد الذي غلب كل شيء، وذلّ له كل شيء، لا إله غيره ولا رب سواه".

---

4 - أخرجه الترمذي في كتاب القدر – باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢١٤٠) (ج ٤/ ص ٤٤٨) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (١٠٢).